دعاني لبيته لحد باب بيته.. ومّا تجلالي بالدمع ناجيته

بيرم التونسي الشاعر الفطري الذي عاش الخلود بالكلمة والصحافة

أتمنى أن أقضي حياتي بلا أصدقاء أرتاح منهم أو أريحهم من ثقل ظلي!

| إسماعيل مروة

«لا أخاف على الفصحى إلا من بيرم» عبارة قالها أمير الشعراء أحمد شوقي في معرض حديثه حين سئل عن العامية والفصحى، وهذه العبارة ليس فيها أي احتمال غير امتداح عبقرية بيرم وشعره، فشعر بيرم في العامية والزجل ليس كلاماً مرصوفاً، بل هو شعر موزون، ويكفي أن يقرأه واحدنا دون إمالة باللهجة ليكون شعراً فصيحاً موزوناً، ومعنى عبارة شوقي الكبير اعتراف بشاعرية بيرم الذي وصل في زجله مراتب شعراء الفصحى وتفوق، وقد يتهيأ للكثيرين أن هذا الزجل هو الفصحى، وبيرم الذي عاش في شعره، وما يزال إلى اليوم من هو؟ ومن أي ثقافة جاءته هذه الشاعرية والعبقرية؟

بيرم الولادة والنشأة

إن كثيرين لا يعرفون من بيرم! بل يضعونه اجتماعياً إلى جانب شوقي ورامي وصالح جودت، وهو وإن كان من الناحية الشعرية والأدبية قد يتفوق على كثيرين، إلا أن ما يفاجئ الكثيرين، وأنا منهم، منبت بيرم وثقافته، فكلنا اكتفينا بسماع أغنياته الرائعة وقصائده الزجلية، وخاصة ما شدت به سيدة الغناء العربي أم كلثوم (الأولة في الغرام، أنا في انتظارك، الأمّات، القلب يعشق كل جميل) وغيرها، ولكنني من شغفي بهذا الشاعر المختلف، وبدافع من عبارة شوقي عنه صرت أبحث عنه في الكتب والموسوعات وكتابات الباحثين، ولكن أغلب هذه الكتابات تتناول بيرم شاعراً. وبإجلال كبير دون أن تدخل في التفاصيل، وعثرت في أثناء بحثي على آخر حديث أدلى به بيرم التونسي وبصوته، وهنا كانت المفارقة مع صراحة الشاعر ووضوحه «جدي الأعلى جاء من تونس، ووالدي ولد في مصر، وأنا ولدت في مصر، وحملنا النسبة إلى تونس، عملنا في وكالة أقمشة لنا، ومات أبي وأنا صغير، لذلك بدأت في العمل، ولم أدرس غير الصف الأول الابتدائي، وبقيت عاجزاً عن القراءة والكتابة، والذي علمني القراءة «جزء عم»، حيث كنت أقرأ فيه قصار السور وأحفظ، وتدربت على القراءة فيه، وصرت أقرأ الكتب البسيطة، وتدرجت في القراءة حتى صرت أقرأ في كتاب الأغاني ونفح الطيب، فتحت دكاناً وأنا ولد صغير أبيع فيها، وبقيت ست سنوات فيها ولم أنجح، حاولت أن أصدر مجلة لكن لم يسمح لي، فذهبت إلى الإسكندرية».

وهنا تبدأ رحلة بيرم التونسي مع الصحافة والشعر الزجلي.

الصحافة ورطة بيرم

في ذلك الوقت كانت الصحافة حلماً لكل أديب من الأدباء، وهي التي ضمت العقاد والرافعي وطه حسين وأحمد لطفي السيد وسواهم، وأراد بيرم أن يدخل ميدان الصحافة، وحين لم يسمح له ذهب إلى الإسكندرية، واستصدر ترخيصاً كما يقول باسم (المسلة- لا هي جريدة ولا هي مجلة) وفي العدد الأول انتقد الملك والإنكليز، ويقول كتبت زجلية لا أستطيع أن ألقيها على الإذاعة، فأغلقت المجلة، وحكم عليه بالنفي، نفي أولاً إلى تونس لأنها موطن أجداده، لكنهم أنكروه ولم يستقبلوه كما يجب، وربما كان ذلك لأسباب سياسية، فغادر تونس إلى فرنسا وهناك عاش أعواماً طويلة، زادت على عشر سنوات، وحين سئل عن تعلمه الفرنسية قال: (أنا لم أكن أعرف العربية وتعلمتها، وفي فرنسا بدأت أعلم نفسي الفرنسية حتى أجدتها، وتمكنت من الحياة هناك كل هذه المدة، من تلقاء نفسه تعلم الفرنسية وأتقنها، وحين علم أن الملك قد مات حزم حقائبه وقرر العودة!

قلت لنفسي: الذي نفاني مات، ولن يرجعني أحد، وفعلاً عدت من فرنسا ولم يمنعني أحد، ولم يطلب مني واحد أن أغادر، وإلى الآن أنا مستقر دون أن يعترضني أحد.. فمن الصحافة وبسببها بدأت حياة بيرم المشاغبة والقاسية، واستمر في الكتابة للصحافة، وكان شاعراً فصيحاً، لكنه يقول: وجدت أن الشعر الفصيح لا يصل للناس فتركته ولجأت إلى الزجل.

مصادر شعره الزجلي

تحدث بيرم عن مصادر شعره الزجلي، فهي من أهازيج ليبيا وتونس وجنوب مصر، وكان يروي بعض الأزجال التي سمعها ويشرحها ويبين مصادر جمالها، ثم بدأ بأزجال مصر من الجنوب المصري صعوداً، وفي كل مكان كان له الرأي في الجودة والإتقان والمعاني، وهذه المصادر شكلت شاعرية بيرم الأصيلة المرتبطة بالأرض والإنسان، وبالشعر الأصيل الذي سمعه، ليشكل بذلك موهبته التي ذاعت في كل أرجاء الوطن العربي، فنحن أمام شاعر فصيح أصيل، وشاعر ينتمي إلى الأرض والموروث الشعبي العربي الممتد من بلدان المغرب العربي إلى الشام، والطريقة البارعة التي كان بيرم يسرد فيها حياته ويتحدث عن نفسه فيها الكثير من الصور والوضوح والبراعة.

تواضع العبقرية

حين كان يسأل عن الأعمال التي ينجزها، ذكر أعماله التي شدت بها كوكب الشرق أم كلثوم دون أن يتوقف عندها طويلاً، فهي أعمال يكتفي بسردها، وحين سئل عما يعمل الآن قال: أكتب أشياء، وأكتب فوازير، وبانتظار أوامر السيدة أم كلثوم لتطلب مني أن أكتب لها أغنية جديدة! بيرم التونسي بكل عبقريته وتاريخه وشهرته، ويشهد له أحمد شوقي وكبار الشعراء، ويشهد له الملحنون، وقد لحن له الكبار من أمثال السنباطي وزكريا أحمد يتحدث بهذه العفوية والتلقائية، وعلينا أن نلاحظ أن هذا الحديث يدلي به بصوته وهو في أوج شهرته، إذ يصرح بأنه بلغ ٦٧ سنة، وببساطة المبدع المهوس بإبداعه يكتب الفوازير، وينتظر أوامر السيدة أم كلثوم، ما بين دراسته في السنة الابتدائية الأولى ولم يتمها، وتعلمه القراءة والكتابة ونفيه، وكتابة أبدع أغنيات زمانه ستون عاماً قضاها ولم تستطع هذه الرحلة أن تجعل بيرم التونسي متشاوفاً مغروراً، بل بقي ذاك المبدع الطيب الذي لا يخرج عن إطار تواضعه الذي يدرك ما لديه.

من خبرته بلا أصدقاء وتجاربه

هذا العذب الذي لا يدانيه في لطفه أحد وهو يقول: (دعاني لبيته لحدّ باب بيته) ويتابع (ولما تجلى لي بالدمع ناديته) وهو الذي يقول: (أنا في انتظارك مليت) عندما سئل عن الشيء الذي يفضله صدم السائل، ويصدم السامع (أتمنى أن أقضي حياتي بلا أصدقاء)، وأمام استغراب السائل أضاف بيرم: أريد أن أرتاح من الأصدقاء، أو أريد أن أريحهم مني، فهو لم يترك العلة في أصدقائه، بل نسبها لنفسه ولهم، فقد يكون هو ومزاجه السبب، وقد يكون السبب من أصدقائه.

وفي هذا القول من بيرم الأغنية والنغم ومنادمة المطربين والملحنين، وابن السابعة والستين فيه الكثير من القول ويستحق الوقوف عنده، فماذا حصل مع بيرم وأصدقائه ليكون بهذا الرأي؟ والغريب أن هذا الرأي كان حاداً وبلا مجاملة ولا مراجعة، ويمكن أن يمثل لكثيرين رأياً يؤخذ به، ويقوم على التجربة.

بساطة الحياة

يبدو أن بيرم كان مشرقاً على النهاية ويعرف ذلك، فقال: أنا أسكن في السيدة، وحي السيدة من الأحياء الشعبية البسيطة، مع تذكر أن هذا الشاعر يكتب لأم كلثوم، ويعادل وزن شوقي في الزجل.

يتابع: قالوا لي: لماذا لا تسكن في الزمالك؟ قلت: لا، سأبقى في السيدة، لأن الإيجار في الزمالك يصل إلى ٢٠ جنيهاً ونحتاج ١٠ جنيهات مصروفاً، وهذا المبلغ أستطيع تأمينه، ولكنني لا أستطيع أن أنتقل إلى هناك وأترك أرملتي تطرد من البيت، لأنها لن تستطيع تأمين ٣٠ جنيهاً شهرياً، فأنا أسكن في السيدة ولن أنتقل إلى الزمالك!

الحديث جاء هكذا دون أي نوع من الرتوش، ولذلك كان أسراً وعذباً ومؤثراً بتلقائية بيرم، وكأنه يردد رائعته الآهات.

العبرة والخاتمة

ولو لم يستطع دراسة الأول الابتدائي علّم نفسه بنفسه، ومن قراءته وتدبره وحفظه لجزء عم أتقن العربية، وقرأ في أمهات الكتب، وصار شاعراً فصيحاً خبيراً في العروض، وعمل في الصحافة وانتقل إلى الزجل والصورة الشعرية المتفوقة، وحين وجد نفسه مضطراً ومنفياً أتقن الفرنسية بالحوار والحياة دون وجود معلم، عاد ليكون أهم شاعر زجلي في تاريخ العربية عامة، وليس في مصر، فحسده شوقي، وانحاز إلى زجلياته رامي ليأخذ من مكانته عند أم كلثوم.. أسس مدرسة زجلية عربية فريدة وقوية، بلغة متينة حتى وإن كانت بدوية، وبصور شعرية فنية أخاذة، ليتعلم أبناؤنا، ولنتعلم نحن قبلهم سيرة هذا الشاعر الكبير، ولا بأس من الاعتراف بأننا نجهل الكثير عنها، لعلنا نتبع منهجه في البحث عن الذات، والاكتفاء بما بين أيدينا دون أن نعيش في عوالم لا تشبهنا.

محمود بن محمد مصطفى بيرم الحريري

ولد عام ١٨٩٣، شاعر وزجال وصحفي، حاز جائزة الدولة التقديرية ١٩٦٠، توفي عام ١٩٦١.

أبرز آثاره

مجموعته الشعرية، أغنياته لأم كلثوم (أنا بانتظارك، هو صحيح الهوى غلاب، الأولة في الغرام، الآهات، شمس الأصيل، الحب كده، القلب يعشق كل جميل، غني لي شوي شوي). ولفريد الأطرش منها (بساط الريح، أحبابنا يا عين).

وفي المونولوج (يا أهل المغنى دماغنا واجعنا يا حلاوة الدنيا يا حلاوة).

وله مجموعة أغنيات وطنية في الثورة.

غنت أم كلثوم روائعها من شعره ولم يتمكن من مغادرة حي السيدة الشعبي!

تعميم الثقافة القانونية في الأوساط الشعبية

ماذا عن آفة التهريب وآثارها؟ وكيف يتعامل القانون معه؟ وما أشكاله؟

| مصعب أيوب

يعرف التهريب على أنه نقل بضائع من دولة إلى أخرى بطريقة غير مشرّعة قانوناً، وهو يشمل البضائع الممنوعة والأسلحة والمواد المخدرة والحيوانات المهددة بالانقراض حتى أنه يشمل تهريب الأشخاص.

وعليه فقد صدر للقاضي المستشار محمد ياسين قزاز عن دار بستان هشام كتاب عنوانه «التهريب بين المسؤولية الجمركية والمسؤولية الجزائية» يتناول من خلاله أشكال عدة للتهريب وكيف تعاطى معها القانون السوري والتعديلات التي طرأت عليه وما إلى ذلك.

الأسباب والآثار والمكافحة

بداية أشار قزاز إلى أسباب عدة تدفع الأشخاص للقيام بالتهريب يتربع على تلك الأسباب: الربح المادي ومحاولة الإفلات من قبضة القوانين والضرائب العالية، والفقر والبطالة وكذلك الفساد وسوء الحوكمة، وأيضاً الحروب والنزاعات.

ثم يومئ بعد ذلك إلى أهم الآثار المترتبة على حدوث تلك الظاهرة والتي أهمها: تشويه التجارة الدولية، إضعاف الصناعات المحلية، تدني مستوى إيرادات الحكومة، تراجع الاستثمار، زيادة الجريمة والعنف، تهديد الأمن الصحي والسلامة العامة، فقدان الثقة بالأجهزة الرقابية الحكومية، والكثير من التأثيرات البيئية.

وحول كيفية مكافحة هذه الظاهرة يفيد قزاز أنه يمكن للدولة تحقيق ذلك من خلال تشديد التشريعات وتطبيق القانون، وتعزيز التوعية العامة، وتعزيز الرقابة والمراقبة، وكذلك تقوية التعاون مع القطاع الخاص، وتعزيز التنمية الاقتصادية وتقليل الفقر، واستخدام التكنولوجيا.

تجاوزات

قدم المؤلف شرحاً تفصيلياً لكل من التهريب الجمركي والتهريب الجزائي مستفيضاً بمقارنات بين حالات من كلا النوعين، فحول حالات التهريب الحكمي مثلاً «الذي ألحقه المشرّع بالتهريب الحقيقي وأجرى عليه الحكم نفسه» يفندها الكتاب: عدم التوجه بالبضائع عند الإدخال أو الإخراج إلى المركز الجمركي المختص، عدم سلوك الطرق المحددة بالقانون في إدخال البضائع أو إخراجها، تجاوز البضائع في الإدخال أو الإخراج من المراكز الجمركية من دون التصريح عنها، تفريغ البضائع خارج الحرم الجمركي أو النقص أو التبديل أو الزيادة من دون سبب مشروع، وكذلك إخراج البضائع من المناطق الحرة من دون موافقة الجمارك.

وتطرق الكتاب أيضاً إلى جرم التهريب في القوانين الجزائية الخاصة والتبدلات التي طرأت عليه بتبدل السياسات الاقتصادية للدولة، فمثلاً يمكن لمحكمة الجنايات الحكم بالغرامات الجمركية المترتبة على تهريب المخدرات عوضاً عن المحكمة الجمركية مشروط ذلك بتقديم ادعاء شخصي خطي أمامها من المدير العام للجمارك وذلك وفق المادة ٢١ من قانون الجمارك.

أسلحة وذخائر

وفيما يخص تهريب الأسلحة والذخائر توسع المؤلف في هذا الجانب نظراً لكثرة تشعباته والتي منها حيازة الأسلحة بقصد تنفيذ عمل إرهابي أو بقصد الاتجار بها وتختلف طريقة تعاطي الأحكام والقوانين مع كل حالة حسب خطورتها وتبعاتها.

وأما عن تهريب الأموال والمعادن الثمينة فقد تكلم الكتاب عن كيفية نظر قانون العقوبات الاقتصادي رقم ٣٧ لعام ١٩٦٦ إليها وأيضاً كيف نظر إليها وحاكمها قانون مكافحة التهريب ١٣ لعام ١٩٧٤، وأيضاً قانون العقوبات الثمينة ٢٤ لعام ١٩٨٦، وفي ظل قانون عقوبات تهريب العملات والمعادن الثمينة ٦ لعام ٢٠٠٠، وفي ظل قانون إدخال وإخراج العملات الأجنبية ٣٣ لعام ٢٠٠٣، وفي ظل القانون الحالي الذي يُشتغل به :قانون العقوبات الاقتصادي ٣ لعام ٢٠١٣ والذي مفاده أنه إذا كانت الأموال المهربة تساوي قيمة خمسمئة ألف ليرة سورية فما دون، فإن أحكام القانون ٣٣ لعام ٢٠٠٣ تكون واجبة التطبيق على الجرم، أما إذا تجاوزت قيمتها هذا المبلغ فتحاكم بموجب أحكام قانون العقوبات الاقتصادية ٣ لعام ٢٠١٣.

مواد مدعومة

وقد نوه فيما يخص بتهريب المواد المدعومة من الدولة إلى تحديد هذه المواد التي تشتمل على «المازوت والبنزين وزيت الكاز والفيول والإسفلت وأسطوانات الغاز والسكر والرز التمويني والخبز الدقيق التمويني والبذار والغراس وما إلى ذلك» ويعاقب الفاعل بالاعتقال من ست سنوات إلى اثنتي عشرة سنة وبغرامة لا تقل عن خمسة أمثال قيمة المواد ولا تزيد على عشرة أمثالها إضافة إلى مصادرة وسائط النقل المستخدمة في التهريب.

تهريب جمركي وجزائي

كما قدم الباحث مقارنة بين حالات التهريب الجمركي وحالات التهريب الجزائي مستهلاً بحالات تشكل تهريباً جمركياً وتهريباً جزائياً في آن واحد ومنها: عدم التوجه بالبضائع عند الإدخال أو الإخراج إلى أول مكتب جمركي، وعدم اتباع المسالك والطرق المحددة بالقانون في الإدخال والإخراج، وتفريغ البضائع من السفن أو تحميلها بصورة مغايرة للأنظمة على الشواطئ، وتجاوز المكاتب الجمركية من دون التصريح عن البضائع، إخراج البضائع من المناطق الحرة إلى المنطقة الجمركية من دون معاملة جمركية، استيراد أو تصدير بضائع ممنوعة معينة أو ممنوعة خاضعة للرسوم بوساطة مستندات مزورة أو مغايرة للحقيقة، الزيادة عما هو مصرح به في بيانات إعادة التصدير، تقديم مستندات أو قوائم مزورة، والقائمة تطول.

كتاب قيّم

الكتاب فيه تشعبات كثيرة وتفنيد مفصل لكافة أجزاء وحيثيات التهريب وطريقة ضبط الواقعة وكيفية تعامل عناصر الضابطة الجمركية مع المخالفة وكيفية صياغة الضبط وطريقة التعامل مع المتورطين ومع البضائع وما يجب أن يشمله الضبط الجمركي والحصانة التي يتمتع بها موظفو الجمارك، ولكن لن تكفي مادة صحفية واحدة للاستفاضة بمكنونات الكتاب القيّم الذي يعد مرجعاً مهماً ويحمل موضوعات شائكة.

برجك اليوم 05/28

نجلاء قباني

الحمل

اليوم لحياة اجتماعية صاخبة ولدعوات حلوة تتلقى فيها الإعجاب والمحبة وقد تفرح لتمتين علاقتك بزوجتك أو بحياة أسرية سعيدة أو في خبر يخص أحد الأبناء.

عاطفياً: أنت سعيد وأكثر من خبر أو لقاء يحمل لك أخباراً سارة عن الشريك أو العمل.

الثور

تغلب على أي معوقات حولك ولا تنسحب من المشاكل لو وجدت بل حاول مواجهة المشاكل بحلها ولكن بعيداً عن الاحتكاك المباشر أو التصرفات العصبية.

عاطفياً: أمورك العاطفية متعبة فقد تحمل لك بعض الاضطرابات المعنوية أو القلق على أمور صحية أو عائلية فهذه الفترة للخلافات والضيق وأحياناً تخترع المشاكل لأنك عصبي ومتوتر.

الجوزاء

أنت تجرب عدة حلول وتمتلك عدة خيارات للتغيرات فاختر ما تريد وبتفكير واستشارة لتواصل جهودك لسد كل الثغرات بتطوير قدراتك وعلاقاتك لتصل إلى ما تريد.

عاطفياً: علاقاتك بالآخرين وخاصة بالعائلة تزيدك إشراقاً فتأكد من قواعدك الثابتة.

السرطان

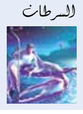

أنت غفور ومتسامح تتواصل وتمنح المحيط المساعدات وتقبل الاعتذارات ولكن لا تنتظر نتائج لزرع أنت زرعته منذ أيام بالدعم يحيط بك والمدح والسمعة الحسنة مصدر سعادة بالنسبة لك.

عاطفياً: أنت تعبر عن الود والمحبة التي تحملها لأصدقائك ولأهلك بالزيارات والتواصل.

الأسد

هذا اليوم يحمل نزاعاً بين العقل والعاطفة لذلك أنصحك بتأجيل اتخاذ القرارات واحذر من جرح الطرف الآخر فكل حركة تسجل عليك فاليوم متعب عائلياً أو شخصيا وإذا شعرت بعدم القدرة على التصرف بحرية أجل قراراتك وتحركاتك للغد.. عاطفياً: أمورك العاطفية غير مريحة فانتبه لأن الفترة المتعبة في حياتنا تكون لاختبارنا على الصبر واختبار محبتنا للآخرين وليس لكي تعادينا الحياة أو تزعجنا.

العذراء

لا تستخف بالواجبات المفروضة أو بعملك الضروري ولا تتأخر عن مواعيدك المهمة، فاليوم لنشاط متطلب ومملوء بالنقاشات مع زملاء العمل الذين تشعر أنهم لا يساعدونك.

عاطفياً: أنت تمتلك معنويات مرتفعة ولباقة تسعدك في التعامل مع أصدقاء قدماء تستعيدهم.

الميزان

أنت تناقش من حولك وتشرح وجهة نظرك وتحاول إقناع من حولك بأفكارك وتلتقط الفرص المتطايرة حولك لأنك ذكي وطموح وتناقش بحرية وكلامك إضافة إلى عملك يسير بالتوازي إلى جانب الحظوظ المساعدة.

عاطفياً: لاتنسى أن الحب يساعدك ويقوي علاقاتك بمحيطك سواء كان أسرياً أو عاطفياً.

العقرب

قد تحاول تصحيح بعض الأوضاع أو تقبل بعض التعديلات المفروضة فكن منتبهاً واعتمد الحنان والتودد ليمر هذا اليوم براحة فقد يحمل بعض المشاكل الصغيرة.

عاطفياً: أنت عصبي وقد تضطر للقيام ببعض التنازلات وهذا يضايقك ويجعلك محبطاً.

القوس

قراراتك أكثر ثباتاً والصراعات حولك أخف بكثير وتعطي أوامر وتجتمع مع من حولك فأنت دبلوماسي ولطيف وضاحك وتضم جهودك إلى جهود من حولك لتمنح نفسك الكثير من السعادة.

عاطفياً: تتحسن أمورك العائلية وسوف تكون مرحاً مع أصدقائك وقد تسعد للزيارات.

الجدي

أنت تحاول إيجاد حلول لجميع الأمور الصغيرة المتراكمة بشكل نهائي وسريع وتحذف الأشياء غير الضرورية وخاصة فيما يتعلق بالمال وتحاول الابتعاد عن الإسراف.

عاطفياً: تزداد قرباً من أصدقائك وتحقق وإياهم قدراً أفضل من التفاهم والمحبة.

الدلو

إذا أردت نصيحتي اقبل بما هو موجود واسعَ وراء الأفضل فأنت تنجز أعمالك ولا تشكك بقدراتك وأزل الستار عن أحلامك فأنت ستحققها بالتواصل مع من حولك.

عاطفياً: لاحظ أن هاتفك لا يتوقف عن الرنين ولا تتوقف حولك الدعوات أو الاتصالات.

الحوت

لا تجعل الماضي يؤثر بك ويقلل من فاعليتك فأنت تحاسب نفسك أو يحاسبك المحيط وقد تتضايق من أشخاص تحبهم لأنهم كذبوا عليك أو تسمع اليوم أخباراً مغلوطة.

عاطفياً: حاول أن تمسك لسانك عن قول الصراحة المطلقة كما هي عادتك فهي جارحة أكثر مما يلزم.